مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد01 بتاريخ 15 جانفي 2020م
ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فاعلية السياق في توجيه الدلالة

– دراسة في المستويات اللسانية في الخطاب القرآني–

The effectiveness of the context in directing the significance

Study in the linguistic levels in the Quranic discourse

د.عبد القادر بن زيان أستاذ محاضر [1]

BENZIAN ABDELKADER

جامعة زيان عاشور الجلفة abbenzian@gmail.com

University of ZIAN ACHOUR DJELFA

تاريخ الارسال: 2019/05/20م تاريخ القبول:2019/05/23م

ملخص:

يعد السياق من المباحث التي اهتم بها الدارسون في القديم والحديث، فهو أحد القرائن الكبرى التي تكشف عن أغراض ومقاصد المتكلم. وفي هذا الإطار يأتي هذا المقال لبيان فاعلية السياق ووظيفته في الكشف عن الدلالات في مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية في الخطاب القرآني، أي أن اللفظ وحده في أي مستوى من المستويات اللسانية لا يمكن أن يكون موجها لدلالة الخطاب وكاشفا عن مقصد المتكلم إلا بالاعتماد على السياق.

كلمات مفتاحية: الفاعلية، السياق، التوجيه، الدلالة، المستويات اللسانية، الخطاب القرآني

---

[1] المؤلف المرسل د.عبد القادر بن زيان abbenzian@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

Abstract The context is considered one of the research that scholars have studied it anciently and recently, so it is one of the large signs that reveals the intentions of speaker, in this context the article comes to clarify their effectiveness and function to reveal the meanings in their phonetics, morphological and grammatical levels in Koranic discourse therefore, the word alone in which linguistic level doesn't guide the meaning of discourse and doesn't reveal the intentions of speaker only depending on the context.

Keywords: effectiveness, context, guiding, semantic, linguistic levels, Quranic speech

مقدمة.

إن الناظر في بحوث الأوائل لغويين كانوا أو بلاغيين أو فقهاء أو أصوليين يلفي أن جهودهم كانت تدور حول فهم مراد الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، أي أنهم بحثوا في الأدلة لمعرفة مقاصد الشارع، ومن هنا لا تكاد تلفي إجماعا على دلالة ومقصد كل ما تضمنه الخطاب القرآني والنبوي، إذ تجد اختلافات حول الخطاب الواحد، مرد هذه التجاذبات خلفيات فكرية ومعرفية وعقدية وتاريخية وغير ذلك مما شكل على مر العصور واقعا مذهبيا وفقهيا وعقديا ونحو ذلك، ومن هنا عد علماء الأصول من بين الطائفة التي نجحت في فهم وتحليل الخطاب القرآني والنبوي، ذلك أنهم كانوا أكثر وعيا بالدرس اللغوي واعتبار وظيفته في التحليل كما أشار إلى ذلك الجويني: «أنهم اعتنوا في فهم بما أغفله أئمة العربية واشتد اعتناؤهم بذكر ما اجتمع فيه إغفال أئمة اللسان وظهور مقصد الشرع»(**الجويني، 1997، ج1، ص130**). أو بشهادة السبكي: «دققوا في فهم أشياء من كلام العرب لم يصل إليها النحاة ولا اللغويون، فإن كلام العرب متسع جدا والنظر فيه متشعب، فكتب اللغة تضبط الألفاظ ومعانيها الظاهرة دون المعاني الدقيقة التي تحتاج إلى نظر الأصولي واستقراء زائد على استقراء اللغوي» (**السبكي، 2004، ج2، ص15**)، فهذه الشهادات وغيرها تلمح إلى أن السياق في نظرهم يعد أحد المرتكزات الهامة في توجيه الدلالة ونفي الشبهة عن الحكم، ومن هنا فرقوا النظر في جملة من العناصر اللغوية وغير اللغوية المفضية إلى توجيه الدلالة إلى غاياتها ومقاصدها،

أي أنهم لم يعولوا على الدليل اللفظي وحده وإنما اعتمدوا على النظر الشمولي بتحصيل (صحة رواية اللفظ وخلوه من الاشتراك...)، ومن هذه الرؤية الشمولية الواعية، انطلق العلماء في دراساتهم ناظرين في الخطاب القرآني قصد بيان مراد الله عز وجل وقد اعتمدوا السياق الذي يعد في نظرهم من أهم القرائن وآكدها في تخليص الخطاب وتوجيهه ضمن السياق العام للخطاب القرآني بما يجعل الخطاب القرآني خادما بعضه لبعض متسقة أنواع دلالاته مع المنحى العام للخطاب القرآني، وعليه فإن تفريق النظر في مباحث اللغويين والأصوليين في مستويات الدلالة:(المستوى الصوتي المستوى الصرفي، المستوى التركيبي.....) يلفيها تتأسس على اعتبار السياق وعدم إهماله نظرا وتطبيقا في المستويات اللسانية.

ومن هنا يأتي موضوعنا حول وظيفية السياق في الخطاب القرآني في مستوياته اللسانية: الصوتية والصرفية، والتركيبية، ذلك أن الاعتماد على اللفظ وحده .كما أشرنا. لا يمكن أن يكون سبيلا إلى بيان دلالة كل نوع منها، وإذ ذاك يتدخل السياق باعتباره فاعلا في توجيه هذه الاختيارات الصوتية أو الصرفية، أو النحوية.

أولا: تعريفات السياق وحدوده

إن الباحث في مصادر القدامى يلفي مصطلح "السياق" قد وظف توظيفا واعيا باعتباره آلية يتوسل به إلى معرفة مراد المتكلم، فقد دار هذا المصطلح عند المفسرين، والأصوليين، والفقهاء، والبلاغيين والنحاة، كل طائفة استثمرت فيه من الجهة التي يخدم غرضها ويحقق غاياتها، ومن هنا يجدر بنا أن نقف مع الدلالة اللغوية والاصطلاحية للسياق.

1.السياق لغة:

ذهب ابن فارس إلى «أن السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدْوُ الشَّيء، يقال: ساقه يسوقه سوقا والسَّيِّقة: ما استيق من الدواب، ويقال سقتُ إلى امرأتي صَدَاقها وأَسَقْتُه، والسُّوق: مشتقة من هذا لما يُساق

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إليها من كل شيء والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سُوق، وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها» (**ابن فارس، ج3، ص117**)

وقد تطرق ابن منظور إلى معاني مشتقات الجذر(س، و، ق): «السوق معروف، ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقاً، وهو سائق وسوَّاق شُدِّدَ للمبالغة، وقد أساقت الإبل وتساوقت الإبل تساوقاً إذا تتابعت وكذلك تقاودت، فهي متقاودة ومتساوقة، وساق إليها الصداق والمهر سياقاً وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرها والسياق المهر» (**ابن منظور، 1997، ج3، ص 369/ 370**)

2.المعنى الاصطلاحي للسياق:

لقد عول القدماء على السياق والإفادة منه في بناء الأحكام واستنباطها من النصوص، إلا أنه لم يعتد به مصطلحاً قائماً عندهم، ذلك أنهم لم يضعوا لمصطلح السياق تعريفاً معيناً، ولم نجد له في كتب الاصطلاح ذكر(**الكفوي،2007، ص 196**) ولقد استخدم الشافعي (ت: 204هـ) السياق ويراد به السياق اللغوي حين قال: باب الصنف يبين سياقه معناه، وعلى الرغم من أنه لم يتطرق إلى تعريفه فقد مثل له بآيات من القرآن الكريم ﴿واسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ [الأعراف: 163] دل على أنه إنما أراد أهل القرية، لأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره، وإنما أراد بالعدوان أهل القرية الذي بلاهم بما كانوا يفسقون (**الشافعي 2005، ص52**)

ويستخدم السياق للدلالة على الغرض، وذلك عندما يطلق البلاغيون وعلماء القرآن لفظ سياق الكلام على الأغراض التي يخرج إليها أسلوب الكلام، كالخبر والاستفهام، والأمر، ذلك أن كثيراً من أساليب الكلام يخرج عن دلالة الأصل بدلائل سياقية ونصية وأخرى من سياق الموقف (**ردة الله الطلحي 1424، ص46/47**)

أما الشاطبي (ت: 790) فقد استخدم لفظ المساق ويعني به السياق بنوعيه سياق النص وسياق الموقف، إذ يقول: «والقول في ذلك أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم، الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام إلى أوله، وأوله على آخره وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض»(**الشاطبي، ج3، ص 309**) ومن مظاهر السياق عند الشاطبي ما بينه في الاعتصام، إذ يقول: «أما ألفاظها فظاهرة للعيان، وأما معانيها وأساليبها فكان مما يعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن تخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد به الظاهر ويستغنى بأوله عن آخره، وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص ويستدل على هذا ببعض الكلام، وعاماً يراد به الخاص وظاهراً يعرف في سياقه أن المراد به غير ذلك الظاهر، والعلم بهذا كله موجود في أول الكلام أو وسطه أو آخره » (**الشاطبي، ج2 ص471**). وممن أشار إلى السياق إشارة واضحة ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد الذي أشار إلى وظيفة السياق ودوره في بيان الأحكام واعتباره أهم القرائن الدالة على مقاصد المتكلمين، كما أن إغفاله يفضي إلى غير القصد المراد، إذ يقول :« **السياق** يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهذا **من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم**، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى: « ذُقِ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » [الدخان:49] كيف تجد **سياقه** يدل على أنه الذليل الحقير» (**ابن القيم، 2005، ج4، ص8**)

3.السياق في الدرس اللغوي الحديث:

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يستخدم مصطلح السياق مقابلا للمصطلح الأجنبي (contexte) الذي يراد به المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة سواءً كانت كلمة، أو جملة في إطار من العناصر اللغوية، أو غير اللغوية (**الطلحي، ط1، 1424، ص51**) ويشير دو سوسير (F.de Saussure) إلى أن دلالة الكلمة تجنى من موقعها في السياق اللغوي، إذ يقول: « والكلمة إذا وقعت في **سياق ما** لا تكتسب قيمتها إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق لها، ولما هو لاحق بها، أو لكليهما معاً»(**دوسوسير، 1985، ص 187/188**) ويضيف فندريس (G.Vendryes) أن السياق هو المائز بين الدلالات المختلفة التي يمكن أن تلبسها الكلمة **فالسياق** يبدد المعاني الأخرى ويقضي عليها، فلا يصير للكلمة إلا معنى واحد من بين المعاني الأخرى، ويرى كذلك أن الذي يعين قيمة الكلمة في كل الحالات إنما هو **السياق**، إذ الكلمة في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً، و**السياق** هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها، و**السياق** هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها، وهو يخلق لها قيمة حضورية(**فندريس ص254**) ومن اللسانيين من يفرق بين نوعين من السياق **سياق داخلي** (Co.text) ويتضمن مكونات قواعدية، ونحوية ودلالية داخلية وصرف وأصوات، **وسياق خارجي** (context) ويتضمن الدلالات الخارجية وإنتاج النصوص واستقبالها (**تمام حسان، 1418هـ، ص91**)، وممن فرق بين هذين النوعين من السياق أولمان (S.Ullmann)، إذ يرى أن السياق ينقسم إلى قسمين **سياق لغوي** (Linguistic of context) و**سياق الحال** (context of situation) يقول: «وكلمة context قد استعملت حديثا في معاني مختلفة، والمعنى الوحيد الذي يهم مشكلتنا في الحقيقة هو معناها التقليدي أي: النظم اللفظي وموقعها من ذلك النظم بأوسع معاني هذه العبارة، إن **السياق** على هذا التفسير ينبغي أن يشمل **لا الكلمات ولا الجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب بل والقطعة كلها والكتاب كله**، كما يعني أنه يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة **من ظروف**

وملابسات والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن»(**ستيفن أولمان، 1997، ص 68**)

ثانيا: .فاعلية السياق في توجيه الدلالة الصوتية

الدلالة الصوتية اختيار صوتي من بين الإمكانات الصوتية التي تسمح بها اللغة، فهذا الاختيار من لدن المتكلم يكون مقصودا في التخاطب ضمن السياق العام الذي يشكل مرجعا للتخاطب، إذ يعد السياق عنصرا فاعلا في توجيه الدلالة والكشف عن مقاصد وأغراض المتكلم، من ذلك من نجد من اختيار لصوت الهمزة بدل صوت الهاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم:83]، فالناظر في الخطاب القرآني يلفي أن توظيف صوت الهمزة التي تتضمن خصائص القوة والشدة اختيار مقصود، فهي صوت حلقي مجهور يكون معه غلق محكم في الوترين الصوتيين مما يعطي صفة القوة والشدة، وهذا بخلاف صوت الهاء الذي يوصف بأنه حلقي مهموس يكون معه الوتران الصوتيان في حال ارتخاء مما يسمح بمرور النَّفَس دون اعتراض أو حبس له (**عصام نورالدين، 1992، .ص232**)، فلو أن التعبير القرآني ورد على هذا النحو: (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تهزهم هزا) لصح المعنى لكن القصد المراد يفوت من هذه الجهة، ولأن السياق سياق العذاب والشدة على الكافرين ناسب أن يأتي التعبير القرآني موظفا صوت الهمزة التي تتضمن هذه الملامح الصوتية المشاكلة للسياق العام لسورة مريم عليها السلام، وفي هذا السياق نلفي ابن جني قد ألمح إلى دقة الفرق بين هذين الصوتين في باب "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" واعتبارهما في التخاطب، إذ يقول: «من ذلك قول الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم:83]، أي: تزعجهم وتقلقهم فهذا في معنى تهزهم هزا، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس

من الهز، لأنك قد تهز ما لا بال له، كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك»(**ابن جني، 2006 ج1، ص403**)

ولقد أشار ابن جني إلى الفرق الصوتي وما يترتب عليهما من معاني تكون مقصودة في التخاطب كالفرق بين صوتي "الحاء" و "الخاء" في باب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني": «فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على مسموع الأحداث، من ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه والنضخ أقوى من النضح قال الله تعالى:﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمان:66] فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه» (**ابن جني، 2006، ج1، ص 411**)

فالآية تقع ضمن سياق الحديث عن وصف الجنة وما فيها من نعيم في جوانب مختلفة، منها دقة وصف العينين بقوة الدفق وشدته بما يمتع المقيم في الجنات، ولقد أشار إلى ذلك ابن عاشور من خلال بيان وظيفة صوت الخاء ههنا في التعبير عن هذا المعنى: «فيهما عينان نضاختان فوارتان بالماء، والنضخ بخاء معجمة في آخره أقوى من النضح بالحاء المهملة الذي هو الرش»(**ابن عاشور، 1984، ج،27، ص272**)

ومن المباحث الصوتية المتعلقة بالدلالة ما نجده في ظاهرة العدول من صائت إلى صائت آخر خلافا للنظام الصوتي في الكلمة، من ذلك ما نجده في قراءة حفص بضم الضمير في "عَلَيْهُ" خلافا للآيات الأخرى التي جرت وفق القاعدة وهي كسر الضمير في "عَلَيْهِ" كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:123] وقوله تعالى:﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:129] وقوله تعالى:﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾ [لقمان:7] أما حفص فقد قرأ قوله تعالى في سورة الفتح بضم الهاء: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عليهُ اللهَ فَسَنُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً﴾ [الفتح:10]، فالناظر في سياق الآية وسبب نزولها يلفي أن هذا العدول الصوتي جاء متساوقا ومنسجما معهما، ذلك الآية نزلت في بيعة الرضوان ونظرا لعظم شأن هذه البيعة وأثرها على الجماعة كان الله شديدا في وعيده للمخالفين فهي بيعة على الصبر المتناهي في قتال العدو

مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد01 بتاريخ 15 جانفي 2020م
ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إلى أقصى الجهد وهي أيضا بيعة عل الموت وعدم الفرار(**أبو حيان الأندلسي، 1993، ج8، ص92**)
أما سياقها الداخلي فقد ورد ضمن الحديث عن شأن العهود وخطورتها في حياة الناس، فالبيعة لله تستلزم التعظيم وعدم نقض المواثيق فناسب أن يأتي الضم وفاقا لسياق الحديث عن العهود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عليهُ اللهَ فَسَنُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ [الفتح:10] قال ابن عاشور: «فإنه لما كشف كنه هذه البيعة بأنها مبايعة لله ضرورة أنها مبايعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم باعتبار رسالته عن الله صار أمر هذه البيعة عظيما خطيرا في الوفاء بما وقع عليه التبايع وفي نكث ذلك»(**ابن عاشور، ج26، ص159**)

رابعا:فاعلية السياق في توجيه الدلالة الصرفية

يرتبط الصرف بالدلالة ارتباطا وثيقا مما يسمح للمتكلم من اختيار الأبنية الصرفية من بين البدائل الأخرى الممكنة للتعبير عن أغراضه ومقاصده، فلا يستقيم خطابه ولا يحقق غرضه ومقصده إلا بتحقيق هذا الاختيار مراعيا السياق العام للخطاب، كالذي نجده من توظيف صيغة "فعَّل" بدل صيغة "فعَل" التي تفيد معنى التكثير وإحكام الغلق، فهذا الاختيار إنما يكون ضمن سياق الريبة والحذر والاحتياط عند فعل أمر ما تخجل منه النفس ولا تريد أن يطلع عليه، من ذلك قوله تعالى الذي يأتي ضمن سياق الحكي عن حادثة وقعت في القصر بين النبي يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، إذ تم توظيف هذه الصيغة المعبرة عن هذه المعاني: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ﴾ [يوسف:23] التي تفيد كما قال القرطبي: «غلَّق للتكثير ولا يقال: غَلَق الباب، وأغلق يقع للكثير والقيل، يقال إنها كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعته إلى نفسها»(**القرطبي، 2006، ج 11ص305/306**) ولقد زاد الألوسي المسألة إيضاحا، إذ أشار إلى دلالة "فعَّل" التي تجمع معنى التكثير وإحكام الغلق: «وغلقت الأبواب أي أبواب البيت وتشديد الفعل **للتكثير** في المفعول إن قلنا: إن الأبواب كانت سبعة كما قيل، فإن لم نقل به فهو **لتكثير** الفعل فكأنه غلق مرة بعد مرة أو بمغلاق بعد مغلاق »(**الألوسي، ج 12، ص211**) فالسياق العام للقصة وجوها يوحي أن هناك تدبيرا

مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد01 بتاريخ 15 جانفي 2020م
ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

من امرأه العزيز تريد أن توقعه بالنبي يوسف عليه السلام فهو إذن سياق مصحوب بالريبة والتوجس والخوف من أن يطلع الآخر على هذا العمل المشين ومن ثم ناسب أن يأتي الفعل على هذا النحو "فعَّل" بدل "فعَل" كما أشار إلى ذلك الرازي مبينا مقام مثل هذا الصنيع: «والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في الموضع المستور لا سيما إذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد»(**الرازي، 1981، ج18، ص115**)

ومن الأمثلة الكاشفة لتفاعل توظيف الصيغ الصرفية مع سياق الآية نجد اختيار صيغة "تفعَّل" في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[يوسف:87] جاء في تفسير القرطبي والتحسس طلب الشيء بالحواس، فهو تفعل من الحس: «والتحسس طلب الشيء بالحواس، فهو تفعل من الحس »(**القرطبي، ج11، ص437**) أي أعملوا حواسكم بكل ما فيها من طاقة كي تصلوا إلى الحقيقة، ومن الأبنية الصرفية بناء "انفعل" الذي يأتي لمعنى المطاوعة، وهي عند الصرفيين: «قبول الأثر وذلك فيما يظهر للعيون كالكسر والقطع والجذب أولى وأوفق»(**رضي الدين الإستراباذي، 1982، ج1، ص108**).
ومن هنا وردت هذه الصيغة في سياقات مختلفة دالة على معنى الاستجابة لأمر الله طواعية يحصل هذا الانقلاب الكوني ضمن سياق عام يجلي الله فيه مشاهد كونية تستجيب لأمر الله لحظة أمرها بصيغة صرفية تحاكي هذا الامتثال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير:02] ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[الإنفطار:01] ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الإنفطار:02] ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:01] « حيث جاءت هذه الصيغة دالة على المطاوعة مناسبة أتم المناسبة لسياقها حيث دلت على استجابة الكون وطواعيته وتأثره بكلمة الله تعالى له (كن)، فإذا السماء انفطرت وانشقت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا عقد الكون كله قد انفرط في لحظة واحدة طواعية لأمر الله تعالى»(**عبد الحميد هنداوي، 2002، ص129**) ومن الاختيارات الصرفية الواقعة ضمن سياق يبرز أهمية هذا الاختيار اختيار صيغة "تفعَّل" بدلا من صيغة "فعَّل" في قوله تعالى: ﴿واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:08] كما أشار إلى ذلك السامرائي: «فإنه جاء بالفعل (تبتل) غير أنه لم يأت بمصدره،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وإنما جاء بمصدر فعل آخر (بتَّل) وذلك أن مصدر تبتل هو (التبتُّل) فإن مصدر (تفعَّل) يكون على (التفعُّل) كتعلم تعلما وتقدم تقدما وأما (التبتيل) فهو مصدر (بتَّل) لا (تبتَّل)، فإن (التفعيل) هو مصدر (فعَّل) كعلم تعليما وعظم تعظيما. وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين معنيين التبتل والتبتيل وذلك أن (تبتل) على وزن (تفعل) يفيد التدرج والتكلف مثل تبصر وتدرج وأما (فعّل) فيفيد التكثير والمبالغة نحو كسر»(**فاصل صالح السامرائي، 2000، ص176**).فسياق الآية يوحي بالجو العام للسورة كلها التي تحث المسلم على التعبد بما يسمح له بمكابدة ظروف الحياة وما يلقاه من مشاق في طريق الدعوة، ولذلك وظفت صيغة "تفعَّل" التي هي لمعنى التدرج والتكلف في فعل العبادة وصيغة "فعَّل" لإفادة معنى الكثرة والمبالغة في العبادة، جيء بهاتين الصيغتين اعتبارا بسياق السورة كلها ابتداء من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوْ أُنقُصْ مِنْهُ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ قَلِيلاً...إلى وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾[المزمل:20.01]

خامسا: فاعلية السياق في توجيه الدلالة النحوية

تنشأ الدلالة النحوية عن تضافر العلاقات بين الوحدات اللسانية ضمن شبكة من العلاقات ممثلة في علاقة الإسناد والتخصيص والإضافة إذ تتفاعل هذا الوحدات بما يسمح للمتكلم بالتعبير عن أغراضه ومقاصده، إذ يتوسل المتكلم إلى أغراضه بأنماط تركيبية تناسب المقام وتخدم الغرض، كأن يقدم أو يؤخر أو يحذف أو يذكر أو يقيد أو يطلق أو يخصص أو يعمم وهكذا في كل مقام، ومن هنا نلفي أن الدلالة النحوية تأخذ مركزا هاما في التخاطب لما تشتمل عليه من هذه الخصائص التي أشرنا إليها كالذي في قوله تعالى: ﴿ذُقِ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان:49]. فالناظر في هذا الخطاب مجتزءا من سياقه يلفي أن ظاهره التكريم والتبجيل، فلو افترضنا أن هذا الخطاب قيل في مقام تكريم أحد الفائزين يقال له هذا الخطاب لأفاد أن مراده التكريم والاحتفاء بالمكرم، ذلك أن ألفاظ الخطاب (ذق، العزيز، الكريم) دلت على هذا المعنى، وعليه فإن إهمال السياق وعناصر التخاطب (مخاطِب ومخاطَب) يفضي إلى الغلط والمغالطة كما ذكر ذلك

ابن القيم: «**السياق** يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهذا **من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم**، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى: «ذق إنك أنت العزيز الكريم »[الدخان:49] كيف تجد **سياقه** يدل على أنه الذليل الحقير» (**ابن قيم الجوزية، 2005، ج4، ص8**)، فسياق هذه الآية يجلي للقارئ أن ظاهر اللفظ وحده لا يكشف عن المراد الذي هو الإذلال والتحقير الذي يرشد إليه سياق الآية ابتداء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان:43-49]

ومن الأمثلة التي يشكل فيها السياق عنصرا مركزيا التقديم والتأخير الذي يأتي ضمن سياق عام يحدد مقصدية تقديم عنصر لساني على آخر، نحو قوله تعالى مخاطبا المشركين بخطابين متشابهة ألفاظهما مختلفة مقاصدهما ومقاماتهما، ففي سورة الأنعام يأتي الخطاب القرآني على هذا النحو: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الأنعام:151]، وأما في سورة الإسراء فيأتي الخطاب القرآني على هذا النحو: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: 31]، ففي الأولى قدم ضمير المخاطبين على الأولاد وفي الثانية قدم ضمير الأولاد على المخاطبين، لأن الخطاب في الأولى للفقراء بدليل "من إملاق" الذي يفيد أنهم في حال فقر فكان رزقهم أهم وأولى من رزق أولادهم فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم، وفي الثانية جاء الخطاب للأغنياء بدليل "خشية إملاق" فإن الخشية تكون من أمر لم يقع بعد فكان رزق أولادهم في هذا السياق هو موضع الاهتمام دون رزقهم، فرزقهم حاصل فقدم الوعد برزق الأولاد على رزقهم، جاء في روح المعاني: «وقيل الخطاب في كل آية لصنف وليس خطابا واحدا، فالمخاطب بقوله سبحانه: (من إملاق) من ابتلي بالفقر، وبقوله تعالى: (خشية إملاق) من لا فقر له، ولكنه يخشى وقوعه في المستقبل، ولهذا قدم رزقهم ههنا في قوله عز وجل (نحن نرزقكم وإياهم) وقدم رزق أولادهم في مقام الخشية فقيل: (نحن نرزقهم وإياكم) وهذا كلام حسن» (**الألوسي، ج8، ص53**)

تعد العلامة الإعرابية من المباحث النحوية التي تدل على أبواب نحوية كالإسناد والتخصيص والإضافة، فهي قرينة لفظية موجهة لخطاب المتكلم، نحو قوله تعالى: ﴿وكلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يسن: 12] فالنصب قرينة موجهة للمعنى المراد الذي يفيد معنى الشمول والاستغراق ضمن السياق العام للخطاب القرآني الذي يفيد علم الله المطلق وأن كل الأشياء ما دق منها وما جل محصية في كتاب الله، يقول السامرائي موجها دلالة النصب: «فإن قلتها بالنصب كان نصا في المعنى الثاني وهو أنه ترك كل شيء له كما قال الله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يسن: 12] بنصب (كل) فإنه على معنى أحصى كل شيء ولو قالها بالرفع لاحتمل معنى آخر لا يصح أن يراد، وهو أن يكون كل شيء أحصاه أثبته في إمام مبين، أما الذي لم يحصه فليس كذلك، فتكون الأشياء على قسمين محصاة وغير محصاة وهذا لا يصح» (**صالح فاضل السامرائي، لبنان، 2000، ص19**) . فورود الآية بالنصب يأتي متساوقا منسجما مع السياق العام للخطاب القرآني الذي يفيد العلم المطلق نحو قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ:03] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَّرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:59]

خاتمة:

تتألف اللغة من مستويات لسانية بنيوية ثلاثة: صوتية، وصرفية، وتركيبية إذ تتفاعل هذه المستويات اللسانية لتحقيق وظيفة اللغة أي وظيفة التخاطب، أو بعبارة أخرى التعبير عن أغراض ومقاصد المتكلمين، وتحقق هذه الوظيفة لا يكون إلا بتفاعل هذه المستويات البنيوية مع السياق الذي يكون عنصرا موجها لدلالة الخطاب، فالاختيار الصوتي هو اختيار مقصود ضمن تفاعل مع السياق، والاختيار الصرفي مقصود في التخاطب ضمن تفاعل الأبنية الصرفية مع دلالة السياق، وكذلك الاختيار النحوي مقصود في التخاطب مع اعتبار سياقه الذي ورد فيه، ومن هنا يأتي الخطاب القرآني معتبرا هذه الاختيارات البنيوية ضمن سياقاتها المختلفة للتعبير عن الأغراض والمقاصد المراد تبليغها إلى المخاطب.

قائمة المراجع:

. الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن. (1982). شرح شافية ابن الحاجب. دون ط. تحقيق محمد نور الحسن. محمد الزفزاف. محمد محي الدين عبد الحميد. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

. الألوسي، شهاب الدين السيد محمود شكري. (دون ت ط). روح المعاني. دون ط. دار إحياء التراث العربي. لبنان.

. أولمان، ستيفن. (1997). دور الكلمة في اللغة. ط12. ترجمة كمال بشر. دار غريب. القاهرة.

. الجرجاني، محمد بن علي. (2007). التعريفات. ط2. تحقيق محمد عبد الرحمان المرعشلي. دار النفائس. بيروت. لبنان .

. ابن جني، أبو الفتح عثمان. (2006). الخصائص. ط1. تحقيق. محمد علي النجار. عالم الكتب. لبنان.

. الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف. (1997). البرهان في أصول الفقه. ط4. تحقيق. عبد العظيم محمود الديب. دار الوفاء. المنصورة. مصر.

. دو سوسير، فردينان. (1985). دروس في الألسنية العامة. دون ط. ترجمة. صالح القرمادي. الدار العربية للكتاب. تونس.

. الرازي، فخر الدين. (1981). التفسير الكبير ومفاتيح الغيب. ط1. دار الفكر. بيروت.

. السبكي، علي بن عبد الكافي. عبد الوهاب بن علي السبكي تاج الدين.(2004). الإبهاج في شرح المنهاج، شرح على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي. ط1. تحقيق. أحمد جمال الزمزمي. نور الدين عبد الجبار صغيري. دار البحوث للدراسات. الإسلامية وإحياء التراث. دبي.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

. السامرائي، صالح فاضل السامرائي. (2000). الجملة العربية والمعنى . ط1. دار ابن حزم. لبنان.
. الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (دون ت ط). الاعتصام. دون ط. تحقيق أحمد عبد الشافي. دار شريفة. الجزائر.
. الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (دون ت ط). الموافقات في أصول الشريعة. دون ط. تحقيق. محمد عبد الله دراز. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
. الشافعي، محمد بن إدريس. (2005). الرسالة. ط3. تحقيق أحمد محمد شاكر. مكتبة دار التراث. القاهر.ة
الطلحي، ردة الله بن ردة بن ضيف الله. (1424). دلالة السياق. ط1. جامعة أم القرى. المملكة العربية السعودية.
. ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984). التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس.
. ابن فارس، أبو الحسين أحمد. (دون ت ط). معجم مقاييس اللغة. دون ط. تحقيق. عبد السلام محمد هارون. دار الجيل. بيروت.
. فندريس، جوزيف. (دون ت ط). اللغة. دون ط. ترجمة. عبد الحميد الدواخلي. مكتبة الأنجلو مصرية. القاهرة.
. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد أبو بكر. (2006). الجامع لأحكام القرآن. ط1. تحقيق. عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة. لبنان
. ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر. (2005). بدائع الفوائد. ط1. تحقيق أحمد بن شعبان بن أحمد. دار البيان الحديثة. مصر. القاهرة.
. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (1997). لسان العرب. ط1.دار صادر. بيروت.
. نورالدين، عصام. (1992). علم الأصوات اللغوية الفونتيكا. ط1. دار الفكر اللبناني. بيروت.
. هنداوي، عبد الحميد أحمد يوسف. (2002). الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم. المكتبة العصرية. بيروت.